

ديزيره سقال

# كتاب الأشياء الميِّتة والضحّد





# مکتبۃ لسان العرب

ا. علاء الدین شوقی

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)



ديزيره سقال

# كتاب الأشياء الميِّتة والصدِّ





الأشياء الميتة \_\_\_\_\_



## الأحجار

Elle ne font ni utiles ni renommées

(Roger Callois)

ذاكرةُ الشمس التي تحجّرت في الصمت الدافئ،

ربوعُ الفَيء والسديمُ المخض،

شفاهُ لا تعرف النطقَ ، لكنّها تملك كلّ اللغات،

رحيلٌ موغلٌ في الثبات -

وجهكِ الفاقدُ الملامحِ شاهدٌ على العصر...

رحيلٌ إلى آخر الشيء يستقبل الأغنيات اليتامى،  
أراكِ تغطّين في زمن الأرض،  
تنكسرين مع العصر،  
تستقبلين الأماكن -  
هذا الصدى وجهكِ المتحطّم،  
هذا المدى رنّعكِ المستميت...



بقاءً الحجم حاضر أبدًا في الغياب،

يدخل فمك الساكن عند بؤابة العصر -

بقاءً الثابت في الغيبوبة المحض.

أترك إلا طبعًا لم يعرف الأطباع؟ أترك إلا برد هذا

الوطن الأجرد حيث تنطمس الأشكال في غياب الهوى،

ويصلدُ الهباء في شمس الهراء الداكنة؟ وبعذك المدى

الهاوي بطيئًا بطيئًا في انحدار العبقريّة - ألا يتحوّل

السراب إلى فعل بحجم السراب؟

أيتها الأحجار النائمة، يا سديم الغياب والضياء،

بقاءً الحجم في ليل ضيّع الأحجام،

برُدُ الصدى في شتاء الحلم المصدّع -  
كنتِ المصير الذي ليس بعده من مصير.  
كنتِ الوجة الذي ليس بعده من ملامح.  
كنتِ العصر،  
وكنتِ خواءَ الزمن...

هكذا ظننا أننا نجسد فيك تحولاتنا  
حيث ينبجس مسرح الغياب،  
حيث الجسم يفقد حجمه،

ويفقد صوتَه -

هي المحنة،

بل عطش الأرض إلى وهج، إلى برق يتلوى في

ربيع المطر،

هي المحنة، حيث يمتدّ وجهك وراء الضوء.

تنطوين.

تتكسرين.

تشهدين -

هي المحنة:

يتراءى العصر من حدودك الخرساء:

ما أصلبَ هذا الموتَ الملوّن!

تافهٌ حضورُك بلا شكل ولا مكان.

عظيمٌ حضورُك في إشراقة لم تعرف الحضور -

ذراعٌ تفتضّ رحمَ اليقظة - النوم. إنّه المطر/ كيف

يُمطر الغيمُ ولا يُمطر؟/ هو الموج يهدر في غياب البحر/

كيف أستيقظ على صوت الأمواج ولا أمواج؟/ ذراعٌ

تفتضّ صدك، تتكسر عليك، وتبدأ لحظة الموت.

هي الهوة

أو ما يشبه المهوى الأعمى.

هي الهوة -

ضِياعٌ من الفجاءة تزئُر الأعمارَ الهباء. ذراعٌ  
تفتضُّ اليقظةَ - النوم. ضِياعٌ من الفجاءة. سيوفٌ من  
البرد والمساومات. ضِياعٌ من الفجاءة. ضِياعٌ...

هي الهوة

أو الانحدارُ المتأرق.

وجهكِ الصدى، ونومكِ الملامح.

## - الدخول إلى العصر -

الأحجار مدارٌ بين الشمس والليل.

الأحجار عصر بين العصر والزمن.

الأحجار... الأحجار...

"لم يبقَ إلاّ ومضة من ملكوت الموت".

هكذا قيل،

أو هكذا ندخل العصر.

## - فصل الشحوب -

حفنة من النقص، أو من غياب القيم.  
بطء الظلّ في غاباتك الساكنة.

شجر من الموت بين الخطوة والخطوة.  
هو الماء الذي لا يخرج ماءً / ما هذا الشحوب  
المداهم؟ هو الماء ولا ماء / ما هذا الشحوب المداهم؟  
صمتٌ أو عويل / نزاعٌ يفتضُّ بكارَةَ الأرض. كنتِ  
شحوب الفعل الباقي، شحوب الكائن الفرد الذي يُهيل  
على الفعل أشلاء الفعل - شحوبٌ... شحوب...  
شحوب... شحوب.

بعض فراغ بين القدم والعتبة -  
يكفي ملامحك التي لم تولد أن تكون خاتمة.  
بعض فراغ... بعض فراغ...

وَلَأَنْسَ

جسدك الصارخ للأرض، الهاتف للخواء؛

وَلَأَنْسَ رواسب الهوة؛

وَلَأَنْسَ الصدى السعيد الذي يُبيح المجزرة،

يختم العصر بالدم والدموع.



على تلك العتبة المهجورة  
أشربُ بقعًا من الأوار،  
أطلي ذاكرتي بالغيوبة،  
وأنام... أنام في ظلِّك الباغي...

- إشكاليّة -

أكنتِ حقًا ميتة أم أنّكِ بداية للموت؟  
حسُّ بعيدٌ يخرج من الأفول والرماد -

بقية من الصدى،

بقية من الشحوب،

ووجهك عقيم يبحث عن عينين في إثم المجزرة.

أَكُنْتِ حَقًّا مَيِّتَةً أَمْ أَنْتِ تَتَلَاعِبِينَ بِالْمَوْتِ،

تَحْجِرِينَ الْفَعْلَ فِي الدَّمِ وَالشَّحُوبِ؟

أَكَانَ مَا يُسَمَّى وَجْهَكَ قِمَّةً لِلْبَرْدِ

حَيْثُ لَا نَعْرِفُ إِلَّا أَنْ نَمُوتَ؟

## - فصل ثان للدخول في العصر -

على حافة شتاء كنتُ أستقبل ثيابك،  
 ووجهكِ مضيءٌ، تُجَعِّدُهُ المهاوي،  
 يرتسمُ في العصرِ بقيّةَ ابتعادٍ، صدى شحوب...

سأسمّي هذا المدى صحراء... صحراء...  
 وأتركُ لوجهكِ أن يكونَ وجههم.  
 سأسمّي هذه السماءَ الغائمةَ ثوبَ حداد  
 وصدى صمتكِ المشربِّبِ ثكلى تنوح.

سَأَسْمِي اللهَ فِيكَ صحراءَ مقفرة،  
 أَيْتَهَا الأحجار، يا ملامحَ رقيقِ أسود،  
 أكثر اسودادًا وإيغالًا في الصحراء منه،  
 حيث لا تسكن الزوابع إلا في خواء الزوابع،  
 حيث لا يكون الأفق إلا عينًا من عيونك المعلقة.

أَنحِجُرُ فِيكَ / ننحجر.  
 نستقبل "الغامض".  
 نرقص في غيوم لا تمطر.

نفترع العدمَ لكي نصير في العدم!  
أيتُّها الغاباتُ السوداءً من الظلِّ والعار والغيبوبة!

على حافة شتاء كنتُ أستقبل ثباتك  
مُنْعَرِزًا في المدى الموات.  
أُعلن أنني أفتح بابَ هذا العصر.  
أُعلن أنني أدخل هوةَ هذا العصر...



## الرماد

يتبدّد الصدى فوق نبع من الذرات الصلصاليّة.  
يلتحم الأفق. ينحدر وجه الرماد شيئًا فشيئًا.

هي البقيّة

أو

دخول في رهبة المدينة،

في أوّل النهاية...

هي البقية  
عندما يستفيق الأرق  
منعجناً بالأرض،  
عندما يشير الحجرُ إلى الحجر...

الدالية تهجس به؛ يتناقل الهواء أخباره على مرمر  
أيامها. الدالية تعصف، تنتظر البقية -  
لكنه الرماد،  
أو



ما يشبه البقية

وأول الدخول في نهاية المدينة...

لكنه الرماد:

حفنة من الصلصال تُطلى بالمعدن،

بالذهب عندما يهمدُ الذهب -

والرمادُ أول الأشياء،

والرمادُ عينُ العناصر،

عينُ البطل عندما تتحد بالعناصر.

والرمادُ حَشَفٌ تحت الصلصال  
عندما يشير الحجرُ إلى الحجر،  
عندما يختلط الذهبُ بالماء الهامد...

النسغُ يحتفظُ بالكيان إذ يفتح البطل ذراعيه لنور  
الشمس، إذ ينهض من الأطمار متابعًا نهاية المدينة...  
والبطل شكل الرماد في الزمن الصوّانيّ،  
والبطل  
أوّل الرماد

حين تهتف المدينة للحجر،  
حين يدخل السيفُ بقية الجسد - الحجر.

## - فصل الرقص والدخول في الرماد -

الدالية

تنحني

نحو

ذرة

الرماد،

تقرأ البداية. لكنَّما الشمسُ تشبه قرصَ الذهب  
عندما يفقد الذهب ندرتَه،  
أو  
عندما يمتزج الذهب بماء الرماد.

الدالية  
تتحرك في الرماد،  
تهدأ شيئاً فشيئاً  
عند رتاج المدينة.

هكذا يفقد البطلُ أعضاءه، ويخرج في الوطن.  
هكذا ينزف المعدن على سُطوعِ قاسٍ.

ويرقص البطل،  
يتصدَّعُ في جفونه تَحْمُرُ الحجر.

يرقص البطل  
حينما يهْلُ الرمادُ

وحوله تنحني الداليةُ  
وأيدياً وأيدياً  
إذ يُشير الحجرُ إلى الحجر...

## - فصل آخر -

يقولون إنه حتمية الخلق عندما ينغلقُ النور في  
حجرة الليل. يقولون إنه مركزُ العناصر، عندما يتحد  
الأصلُ - تتحد البدايةُ والنهاية... يقولون: هكذا يبدأ  
الشيء من حكمِ النهاية؛ بيدَ أنّ انفصالاً واقعاً يحتّم  
البداية...

هكذا يبدأ الرمادُ...!

- الأصل -

هاتوا النارَ نبدأً.

هاتوا الترابَ والماءَ نمزجهما

وَلتَهَبَّ الرِّيحُ...

حين تستغرق الأشكال في الأشكال، وتنفرج  
المسافة شيئًا فشيئًا، يُطلِّها جسُّ الحجر. وإذ ترتعشُ تحته  
المسافة، يهبُّ الرمادُ! -

هاتوا النارَ نبدأ.

هاتوا الترابَ والريحَ نمزجهما

وَلْتَهْبِ الرِّيحُ...



## - البطل والرماد -

ينزلُ سيفُهُ في شمس من الجليد. ها هوذا يبكي،  
يُريقُ الأشكالَ حولَ هيولى منطفئة، يستغرقُ في المدينة.  
ها هوذا يبسطُ عينيه أمامَ مسافةِ الصلصال، يولدُ من  
مواعيدِ الجراح التي تندلعُ في نيسان. هكذا سيفُهُ وليدٌ في  
بحر التراب -

هاتوا الأشياءَ يبدأ،

هاتوا الرماد -

يغيبُ فيه مطعوناً بمديّةِ الثلم. يتحدُّ به. يكونُ  
إيَّاه. سيانٍ بدايةً ونهاية. سيانٍ شرقٌ وغرب،

هو الجهاتُ  
آنَ يكونُ المكانُ مقفلاً كدائرة.  
ينكسرُ الشكلُ في الأتحاد -  
لا شكلَ لهما،  
وهما في كلِّ شيءٍ...

نسيَ البطلُ سيفَهُ  
فَلَنَنْسَ.

نسيّ البطلُ همّةً

فَلنُنْسَ.

صارَ البطلُ والرمادِ سِيَّيْنِ

فَلنُنْسَ، فلنُنْسَ...

- ملحق -

ثمّة ما يلي الرماد، لكنّه غامض. لعلّه يشبه الغيبوبة

عندما تكون صِنوًّا للبطل. لعلّه الفراغ... ثمّة ما يلي الرماد

عندما تقفد العناصرُ التّامّها. -

لعلّه الرماد...!



## الصحراء

- كومونة الصحراء -

- ١ -

على مَرمر الأشعة الترابية  
يتحاصر وجهك بالحدود:  
صوّان  
أو  
بقية من صلد الرعشات.

على هذا المرمر المائع

تبدئين:

كأنتك في الجرح لعنة الفلاة،

كأنتك

هذا البحرُ الأسيديُّ ترجمان السديم.

- ٢ -

كان امرؤ القيس يكتب بلورك

على حين كأنه الغياب.

لماذا

لا يطرح الهواءُ ممحاته

على الرحم الذي

يثقب العالم؟

لكنّك

بين الفجر الصارم والليل الكسول

تنظُرُين المدى

كأنّك الضياع الذي

لا يعرف إلا أن يضع...

- ٣ -

ذراعك التي تدور في غياب المسافة  
ترصد الملكوت الذي لا يقوم.  
وهذا الشحوب الضارب طياتك  
بين الساعة الرمادية وقبض الليل  
لا يملك إلا أن يتساءل،  
حيث مرمر الوجدان



يلبس الوجود

أو

يصدع الزمن المقيم.

وأنتِ،

آه، أنتِ والكون!

أنتِ،

آه، أنتِ والجليد!

بقايا من الحطام اللازوردِيّ،

حيث صقيعُ العالم الأخير،

حيث...

ليس إلا الوجودُ ترجماناً للوجد.

- ٤ -

الرعد يقصف. وجهك في الرعد يرتجف، والمدى

يسأل عن قرارك الهاجع. وعندما يهجس الليل في

الغممة الأخيرة يعرف أن ليس إلاك من سديم.

أيتها العارية،

لماذا لا تتساءلين؟

- ٥ -

الموت أوطانٌ كنتِ تعشقينها،  
ترحلين إليها في الهواء والرمال...  
سَمِينا، آه، الرمال،  
سَمِينا، آه، الجراح.  
وَلِيَفْتَحِ العَصْرُ شحوبَكَ المديد.  
لكن،

بين الحبة والحبة،  
شفير طويل من الدمع والدماء،  
بقية من الصدى  
بقية من الدوار.  
ووجهك ضائع  
يبحث في الملامح عن اسم جديد.

لكن  
اسألي ما يكون سيّد الانفصام هذا،

اسألني عن حدودك الخرساء في مَهَبِّ التَّيِّه.

أَيُّهَا الْحُورِيُّ الْبُنْيَّةُ

لماذا

لماذا

لا تفتحين؟

- ٦ -

حين كنتِ تذرِّينَ على بعدكِ الغائب

دموعًا من الرمل اللارزورديّ

لم نعرف أنّ القبيلة طعنة في مداكِ.

طوبى لكِ

تُنَحْرِينِ فِينَا

وديعَةٌ كالوعلِ المسعورِ.

وعندما تَسْأَلِ الأَرْضُ عَنْكَ

أَعْرِفُ أَنَّ اللَيْلَ قَدْ بَدَأَ

وَأَنِّي فَشَلْتُ.

## - وجوه الصحراء -

### - ١ - وجه

في مراتع القَطَا ينهمر، يُسَوِّرُه الوجود، وتمكُّرُ به  
الأطيفُ من كلِّ جانب.

وعندما يسأل عن حدوده في صدع النهار، لا  
يتركُ حوله إلا رنبلاً يابساً وبعضَ كلامٍ مَيَّتٍ...

### - ٢ - وجه

ثُمَّة

في أجنحة العنقاء  
رماد ذو طعم كالوَجْد -  
لعله الوَجْد!

- ٣ - وجه

في حدود جسدك يبتسم النحاس.  
والأرضُ البعيدة  
تحاصره كالجليد.  
علام، إذًا، هجوعُهُ الطويل؟



علام،

هذا

الصمتُ

الأخرس؟

- ٤ - وجه

في ثيابكِ الظمأى

كنائسُ مُعْنَمَة،

وجرحٌ لا يعرف الإقامة.

في ثيابكِ الضمأى

مَلَكُوتٌ هَامِدٌ،

ورِثَاجٌ مَعْلَقٌ

...حَتَّى الغياب.

الضحد \_\_\_\_\_



## السديم

هكذا، لا لونَ له، تُورِّقه النجومُ، ويضربُ عليه  
 زمانان: واحدٌ مثله، واحدٌ مناقِضٌ له. هكذا، نراه عبر  
 اللون، ويكتظُّ حوله هواءٌ صلد، وبعضُ سواقٍ من الحبرِ  
 يتكلَّسُ في فمه. بَيِّدَ أَنَّهُ يبقَى واحدًا، يبقَى ثابتًا ومتحرِّكًا،  
 أَحادييِّ الملامح مُتَعَدِّدُها.

هكذا،

أصلُ كلِّ شيءٍ...  
بعيدٌ كالأبد،  
قريبٌ كالآن،  
مطلقٌ،  
وتراه حتى  
في الحصاة!

هكذا

يستقيمُ في سبعةِ أبوابٍ لا ثامنَ لها. سَمِّهِ التَّو،  
 سَمِّهِ ما شئتَ، لكنّه يبقى فيكَ إِيَّاكَ، يستغرُقُك ويوحِّدُك،  
 يُعيدُ إليك ذاتَكَ ويُسيكها. سَمِّهِ ما شئتَ، سَمِّهِ الغيبوبةَ  
 أو سَمِّهِ الوعي - لكنّه أصلُ الحضور، فيه يتمدّد كلُّ  
 شيءٍ.

(أيّها الغارقُ في البعدِ، الممّعنَ في القُربِ، أيّها  
 العاشقُ المعشوقُ، ألا فازنَ في هذا الأبدِ المريضِ، وليرتَعْشُ  
 حولك كلُّ شيءٍ...)

هَلُّوِيَا.)

هكذا

يُورِّخُ الهاجسُ بدءًا منه،

يُورِقُ في الهاجسِ. لكنَّ على وجهه قافلتين:

إحداهما تَبزَعُ شرقًا، والأخرى تَأْفُلُ في الغربِ. بَيِّدَ أَنَّ

الضراعةَ الخَوْوَنَ تَلَوِّحُ حَوْلَهُ، وجلجلةُ النحاسِ تَنْبُتُ

بمداه. هكذا، يَسْتَيْقِظُ فينا، أَلُوفًا، وترشُحُ عيناه بالمطرِ.

لكنَّه يَبْقَى بعيدًا كَالهاجسِ يَبْدَأُ مِنَّا أَصَلَ الشَّيْءِ،

يَسْتَغْرِقُنَا وَيُوَحِّدُنَا.



هكذا،

نبدأ في الأبواب السبعة،

مطلقاً،

ونسكن في الحصاة،

شيئاً منه، أو إياه.

وعندما نعصر العنب نستقطرُ خمراً. عندما نضربُ  
الحجرَ نفجرُ ينابيعَ زلاًلاً، نقرأ الفاتحة ونستهلّ، نسأل أو  
نتساءل. وعندما نلقى الظلّ، ندخله، فيستحمّ فينا. ويبرأ  
الحجرُ، تبرأ الغابات والأرضُ، نتابعك، حتى في نفّ  
الرداذ، حتى خلفَ خطواتِ القطا، نتابعك؛ نتبرأ منك،  
أنتَ الأصل، نستنشقُك، ونمشي عليك إليك.

هكذا، عندما ننظر في عينيك ننظر في عينينا.  
 وحين يفيض الوجدُ نسجدُ لنا، نتبرِّكُ بنا - سُبْحانَكَ  
 أيُّها البعيدَ القريب، أيُّها الشرقُ والغربُ، والجهاتُ كُلُّها،  
 سبحاننا!

وعندما نعصر العنبَ ننعصر؛ عندما نستقطرُ خمرًا  
 نتخمَّرُ، عندما نضربُ الحجرَ نفجِّرهَ ينابيعَ زللاً، نفتتحُ  
 ونعلو، يستحمُّ فينا كلُّ شيءٍ ويبرأ.

(أَيْهَا الغارق في البُعدِ، الممَعِنَ في القُربِ، أَيْهَا  
العاشِقَ المعشوقَ، يا نَحْنُ، أَلَا فانتفضُ في هذا الأبدِ  
المريضِ، وَلَيْرَتَعَشْ حَوْلَكَ كُلُّ شَيْءٍ...)

هللوياء...)

كتب القصائد في العام ١٩٨١

## الفهرس

### الأشياء الميتة

ص ٣  
ص ١٩  
ص ٣٣  
ص ٤٩

الأحجار

الرماد

الصحراء

### الضدّ

السديم





نسيَ البطلُ سيفَهُ  
فَلنَّسَ.

نسيَ البطلُ همَّهُ  
فَلنَّسَ.

صارَ البطلُ والرمادِ سَيِّينِ  
فَلنَّسَ، فلنَّسَ...